

في قصور مراکش...

بقلم جناب الكاتب الاستاذ معمري أزوار
رئيس ادارة الصنائع والفنون الوطنية بالمنطقة المراكشية

هذه خمسون سنة أو ما يقرب منها وافي مراکش
حيث كان يقيم السلطان مولاي عبد العزيز الذي أقيمت
اليه مقاليد المملكة وهو في عنفوان الشباب وزيران
اخوان وافق وجودهما انتشار عوامل الضعف في الحياة
العامة .

فأي شيء كان يروج في خلدتهما اذ ذاك ويخامر
نفسيهما ؟ لسنا نعلم شيئاً من هذا وقد تضاربت أقوال
المؤرخين الذين حاولوا ان يرسموا لنا صورة مما كان يحدث
في صدريهما من عواطف وافكار ، غير أننا نعلم يقيناً أن
مقام هذين الوزيرين بعاصمة المرابطين كان من نتائجه الحسنة
أن ظهر تحت سماء مراکش قصران لا تنفصل صورتاهما
في الذهن اذ أن تاريخهما واحد ، وهذان القصران وهما
الباهية التي ابتناها الوزير العظيم «ابن حماد» ودار «السي
سعيد» التي شيدها اخوه «السي سعيد» كما يدل على ذلك
اسمها - ، هذان القصران القائمآن في درب واحد على مقربة
من « جامع الفنا » نعتبرهما اليوم من آي الفنون الجميلة
الجديرة باستهواء السواح والاخذ بالبالهم .

ان دار «السي سعيد» دار رحبة فسيحة الارحاء
شاهقة الجدران تحتوي على خمسين حجرة فأكثر وتنتفتح
أبوابها الثلاثة الى نواح مختلفة ، وان ارضيتها وحدها
تتكون من افنية ثلاثة و«رياض» تربط بينهما دهايز بهيمة
في الشتاء ولكنها ظليلة في الصيف .

فاما الفناء الاول وهو ما يسمى «بدار التريج» فهو
مربع مفروش بمجارة الفسيفساء ذات الالون المتنوعة ،

الى الفتنة وانتهيت امتعتها وبعث معها باهلها لمراكش وقد قاسى
الشيخ احمد بابا في رحلته هذه انفس الحياة ودقت ساقه ثم رمي
في غيايات السجن برهة من الزمن الى ان شملهم العفو العام من
لدى جلاله المنصور فشرح الشيخ بابا السوداني على شرط
اقامته بمراكش وقد ذهب لمقابلة المنصور وقد كان اتخذ له حجابا
وفق الخلافة العباسية فرفض الشيخ بابا محادثته حتى يبرز له وقد تلا
على مسامع المنصور « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من
وراء حجاب » وقال في حماسة موجهة للخطاب للمنصور : أو تشبه
رب الارباب ؟ ولم يكن للمنصور امام كل ذلك الا ان يتنازل من
عليائه لمستوى يتواءم فيه مع الشيخ بابا الذي شرع يناقشه الحساب
في فتح السودان وردد عليه هلا فتحت تلمسان وهي اليك اقرب
من السودان فاجابه المنصور في وداعة ورعاية امثالاً لقول الرسول
- اترك الترك ما تركوكم - غير أن الشيخ اشتد غضبه وصار يلد
في الخصام الا أن رعاية المنصور شملته وسكنت روعه سيما وهو
متأثر من محنته فخرج شاكراً وتصدى للتدريس ونشر العلم في
مسجد المواسين ووضعت خزانة الاشراف تحت تصرفه وهرع
طلبة العلم للاخذ عنه فاتفق الناس بعلمه وبقي بيت العلم الى ان
اذن له في السفر لبلاده في عهد الامير زبدان بعد وفاة المنصور
اسبلت عليه سحائب الرحمة .
محمد بن عثمان

مراكش

للشاعر الرقيق سيدي أحمد أب حنيني

مراكش بلدة يلقي الغريب بها
ما شاء من بهجة تسلي ومن كرم
ساحاتها الفيح جنات منعمة
وناسها الناس في خلق وفي شيم
راق النخيل ورق الساكنون به
فالقلب في طرب والطرف في نعم
حسن وأنس واحسان وفاكهة
تذكي وتروي جميعاً رغبة النهم
احمد أب حنيني

في هذا الفناء ترى الأروقة العالية المنسجمة الى جانب الابواب المزدانة بشتى الاصباغ والنوافذ المحلاة بشبابيك الحديد التي أحسن صنعها صناع الكف ، وفي وسطه يلوح لك كالزهرة الغضة المتفتحة جرن رخامي متدفق المياه قبالة حوض جميل جداً لا يقطع له خرير ثم يقع نظرك على حجرات فاخرة قائمة وراء الأروقة ذات سقوف بديعة الزخرفة .

واما الفناء الثاني فهو اصغر من الاول ولا ترى فيه الا حجرتين تقابل احدهما الاخرى وكل ما في هذا الفناء من خشب فهو من عود الارز الذي تفننت في تنميته يد الرقان .

واذا بلغت الفناء الثالث فانك واجد وسطه صهريجاً على صورة نجمة يتفرق مأوه وهنا يقع بصرك على أربع حجر تسود فيها البساطة التامة ويخيل اليك اذا نظرت الى أرض هذا الفناء انك تمشي على الرخام وما هو برخام وانما هو طلاء من الجير يلمع فوقها ويجدع الناظر البصير وهذه البساطة تمتظم كذلك الابواب اذ لست ترى عليها الا طلاء ازرق .

ثم تحذوك الخطأ فاذا انت بدهليز يقل فيه الضياء شيئاً فشيئاً الى أن يعم الظلام أو يكاد ، أليس من الطبيعي أن يتجنب الانسان الضياء المكل لطرفه في الصيف ؟ ثم تلوي على اليسار ثم تلوي على اليمين فاذا بك ازاء ابواب ما كان يخطر بحسبانك انك ستقف عندها فاذا جرت هذه الابواب فقد بلغت ساحة رحبة جمّة الاخضرار والنبات ، هذه الساحة هي « الرياض » وما أظنك كنت تتوقع ان تقع خطاك بهذا المكان الذي تملك عليك بهجته مشاعرك ويرحب بك أحسن ترحيب فما ألد هذه المفاجأة وما أخفها على النفس ! أما ترى على مقربة منك وفي طوع

يدك شجر الليمون الموفر بالجنى المزجي اليك اعذب النفحات ، ان زهر الياسمين ليبعث اليك بعبيره وهو محتجب عن عيانك ، انظر الى هذا النبات الغريب الذي تميل ازهاره البيضاء مع الشمس حيثما مالت كانها كلفة بها والى هذه الورود والازهار التي تكسو الارض فلا تترك فيها عراء ثم اجل نظرك في وسط هذا « الرياض » أما ترى فيه كوخاً بلو صهريجاً أما ترى الواح هذا الكوخ تكاثر الوان الطبيعة الغضة الفتية وشجر السرو يحترق الفضاء المحضر كان به شمساً ، الى هذا الشجر تلجأ البizan والرزازير وفي غيره تبحث الشجارير والعصافير عن قوت يومها ، وبينما ترى أطيافاً ترقص امامك فتنتقل من ايكّة الى اخرى في شيء من الطرب والنشاط كثير ترى اطيافاً غيرها لا تقل عنها خفة وابتهاجاً تدخل الحجر وتلتقط داخلها الفتات الساقط عن الزرابي .

ان جاذبية هذا المكان لقوية جداً وان جزئية واحدة لتقف نظرك برهة من الزمان وتبعثك على التفكير انظر الى هذه الاصباغ والنقوش التي لا تقيم لها وزناً أول الأمر ألسنت تراها مذكّرة بما رسمته براعة الفرس من تهاويل وارقام ؟ فاذا بحثت في نفسك وارتدت أن تستكشف ما تهيجه فيها النظرة الشاملة الى هذا المكان من ضروب الاحساسات والعواطف تبين لك ان علماً من الشعر يحيط بك وان لحظة واحدة تقيمها به تستطيع أن تفرقك في ألد الاحلام ، واذا غادرته وابتعدت شيئاً ما وقعت خطاك بابواب تصل منها بعد شيء من الالتواء الى توابع القصر من مطبخ وحمام ومراح للخيل وحجر خاصة بالخدم وغيرها .

ولكن لنرجع الى وسط القصر هنا يرى الزائر مرقاة لا يكاد يستجليها النظر لوجود الظلام الخيم بها تبلغك الى الطبقة الاولى وبناء هذه الطبقة مربع اتخذ وسطه شكل

قلنسوة من خشب مثمرة الاضلاع والزوايا ، وعند اول نظرة تلقيها على ما حولك يمتلكك الاعجاب بما يقع عليه بصرك من فنون الزخرفة وحسبك هذه التخاريم التي تنطق على جبس الجدران وحجارة الفسيفساء اللامعة التي تتفتح على وجه الارض ازهاراً ساحرة الالوان ، وحسبك ايضاً هذه الحجرة القائمة على يمينك وهذه الحجرة الاخرى القائمة على يسارك وهذان البهوان المحتويان على وذائل مشرقة تقابل احداها الاخرى وتنمكس فيها جميعاً صور شتى لهذا القصر الباذخ واذا دخلت كبرى هاتين الحجرتين بهرتك عظمتها ونقوشها الفتانة الفاخرة وتلك الاصباغ الجملة الالوان التي تلوح على سقفها شمساً واقماراً ، انظر الى هذه الارائك التي انبسطت عليها الزرابي وكستها المرافق ، انها لتمتد طول الجدران وتحيط بها البسط المجلوبة من الرباط وناهيك بهذه البسط التي تزيد الابنية الرائقة روتقا وتكسوها صورة خلافة .

وهناك مرقاة اخرى تبلغك الى الطبقة العليا وهذه الطبقة اتخذت شكل « منزه » مستدير يطل على الفناء الاوسط من نوافذ واسعة فاذا جرت باباً من أبواب المنزه دخلت سطح القصر حيث يقع بصرك على الاطلس المكمل بالثلج والنخل الشديد الاخضرار .

كان الوزير « أب حماد » يرمي الى العظمة حين ابنتى الباهية ، وكان الوزير « السي سعيد » يرمي الى الجمال حين شيد قصره ومما شاع على اللسان ان « السي سعيد » كان يحيط ببناء هذا القصر بعناية بالغة حتى انه كان يتفقد بنفسه اعمال الخدمة القائمين بتشيدده وكان يرسم لهم الخطة التي ينبغي لهم أن يتبعوها وقد حدث له مراراً ان أمر العملة بتدمير ما جادت به قرائهم من فنون الزخرفة وضروب التنميق رغبة منه فيما هو أجمل وأبهى ، وأية

غرابية في هذا أليس « السي سعيد » وزيراً يريد أن يخلع على القصر الذي يحاول أن يتخذ مسكناً له من حلال التربة والفخار اغناها؟ ومما شاع على اللسان أيضاً ان الوزير أنفق في بناء هذا القصر اموالاً ضخمة وانه مات ولما يتم بناءه على النحو الذي كان يتطلبه ولقد شاع على اللسان أشياء كثيرة غير هذه ، ولا بدع فان لكل قصر من القصور اساطيره المحيطة به العالقة بحياته وسواء اصحت هذه الاخبار أم لم تصح فان هناك حقيقة واقعة الا وهي هذا القصر الذي نستطيع اليوم ان نتملى بهجته ونعجب بروائه ولقد شئت الظروف ان يحيا هذا القصر حياة حافلة بالحوادث وان تحتلف عليه الاجيال ويتوالى عليه النازلون من كبار المخزن الذين احتلوه أول الامر الى رؤساء الناحية الذين كان لهم النفوذ على مراكش ، غير ان هذا القصر الذي يلوح اطراً رحباً جميلاً افتقر ذات يوم الى شيء من الترميم فقامت مصلحة الفنون الجميلة بهذا العمل أحسن قيام ولم يلبث القصر ان استرد صورته القديمة الخلابية وحينئذ تقاطرت عليه البسط والاواني من جميع أقطار المغرب وامتلاً أسلحة وحلياً ثم نشأت بأحد أفنيته على يد جناب باشا مراكش مدرسة للموسيقى واستطعن ان نقيم حفلات « بدار التريج » كان للموسيقى العربية والرقص البربري فيها أوفر نصيب وكان يحضر هذه الحفلات طوائف من السواح والطلبة ، بيد اننا كنا قبل اليوم عاجزين عن اشراك بقية سكان المغرب في التمتع بما يحويه جنوب المغرب من نفائس فنية وهما نحن اولاء نبتهج الآن بإنشاء محطة لاسلكية بمدينتنا هذه فعسائنا نستطيع ان نسد حاجة المتعطشين الى تلك النفائس . معمرى

تصحيح - وقع في العدد الفائت تحريف في اسم صاحب القصيدة المراكشية الشاعر المفلح السيد الحسن البونعماني فكتب غلطاً محمد البونعماني فترجو تصحيحه .